

الكلاب وبقر الوحش في الشعر الجاهلي شعراء هذيل انموذجاً

بحث من اعداد

الاستاذ الدكتور صدام فهد الاسدي

قراءته عندما كان طالبا في كلية التربية سنة 1979

مستفيداً من محاضرة استاذي الدكتور اياد عبد المجيد ابراهيم استاذ الادب الجاهلي لسنة 1979

ان اكثر الحوار الشعري الذي استخدمه الشعراء يعتمد التجريد و يخلقه الشاعر ليؤكد حالة و صفة في نفسه فعندما يحاور الفرس و يؤكد شجاعته و عندما يحاور الذئب و يؤكد كرمه و عندما يحاور المرأة و يؤكد بطولته .

قول حاتم الطائي :

و قاتلة اهلكت بالجود مالنا و نفسك حتى ضر نفسك جودها

فقلت دعيني انما تلك عادتي لكل كريم عادة يستعيدها

و مثله تأخذ شخصية أمري القيس هذا التجريد و تقديم الحوار ابعادا قصصية تتجلى من خلالها قدرته و يبرز تمكنه الشعري فقد جرد امرأة فنهض يسعى اليها برفق و مهل لئلا يشعر بمكانه احد بعدما نام اهلها :

و يوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات انك مرجلي

تقول و قد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيري يا أمراً القيس فانزل

فقلت لها سيري و ارخي زمامه و لا تبعديني من جنائك المعلل

فقد أصبحت هذه التقليدية في الحوار تقليدا معروفا سار عليه الشعراء و السؤال هل ان صورة الحوار التي استخدمها الشاعر وقفت عند حدود الصفات ؟ و الجواب لا لان الشاعر يذكر نوازع النفس الانسانية .

جاء في كتاب الدكتور شوقي ضيف (العصر الجاهلي) ص223

تفيض قصائد الجاهلية بحركة واسعة فهي اساسه و قد يدخلون هذه الحركة في المقدمة نفسها و لا يكتفي الشاعر بالوقوف على الاطلاع و بكاء الديار بل يصور ظعن حبيبته و قد خرجت تطلب المرعى و تنتقل من موضع لأخر و عين الشاعر تسجل هذه الرحلة تسجيلا بديعا و قد اتاحت هذه الحركة لشعرهم ضربا من الروح القصصية في وصف الحيوان الوحشي و وصف مغامراتهم الاخرى .

فان معانيهم يسودها ضرب من الروح القصصية و هي روح لم تتسع عندهم فقد اضعفتها حركتهم و ميلهم الى السرعة و الميل الى الايجاز فلم يظهر عندهم ضرب من ضروب الشعر القصصي بل ظل شعرهم غنائيا ذاتيا يتغنى فيه الشاعر بأهوائه و عواطفه غير محاول صنع قصة يجمع لها الاشخاص و المقومات القصصية و يرتبها ترتيبا دقيقا و ان شيئا من ذلك لم يخطر بباله اذ كان مشغولا بنفسه و لا يهمله الا ان يتغنى بها و بمشاعره .

القصة عند الهذليين : قد تقف القصة عند هذيل على ركنين اولهما مذهب عام يلجأ اليه الشاعر و هو عامد و ثانيهما تخيل الحادثة بوعي و تفصيل و هم يميلون دائما الى عدم الاطالة و يبتعدون عن سرد الموضوعات بسبب ميلهم الى المقطعات القصيرة .

و قد تبتعد قصتهم عن الغنائية و قد تقف على اركانها الاربعة :

1- الوقائع : تقف القصة على حوادث مرتبطة بواقع الحياة و قد تأتي عن طريق الخيال فالواقعية

في قول ساعدة بن جوية :

و تالله ما ان شهلة ام واحد بأوجد مني ان يهان صغيرها

رأته على يأس و قد شاب رأسها و حين تصدى للهوان عشيرها

فشب لها مثل السنان مبرءاً امام لفادي دارها و اميرها

و قد تتشابه الافكار و الوقائع و تختلف القافية في قصيدة اخرى .

فهو يحكي عن ولد مبرأ خال من المرض انتت به امه من بعد يأس طويل و بعد ان ذاقت الامرين و
رزقت به بعد كبرها و هي لا تريد الا زوج ثم كان يعولها :

رأته على فوت الشباب و انها تراجع بعلا مرة و تنيم

فشب لها مثل السنان مبرءا اشم طوال الساعدين جسيم

و الزمها من معشر يبغضونها نوافل تأتيها به و غنوم

فاصبح يوما في ثلاثة فتية من الشعث كل خلة و نديم

فقد ذهب فتاهما مع ثلاثة من الغزاة و كلهم خل و نديم و كلهم لا يدرون من الغيب امرا حتى احاط
بظهره عدداً من الرجال كأنهم سرب جراد ماذا يفعل الفتى ؟ هل يستسلم ؟ حمل سيفاً و وقف امام
الاعداء و تنتهي المعركة فيسقط الفتى مغلوباً على امره و يسرع صاحباه الى امه :

و لم ينتبه حتى احاط بظهره حساب و سرب كالجراد يسوم

فألهامم بأثنين منهم كلاهما به قارب منه النجيع ذميم

و جاء خليلاه اليها كلاهما يفيض دموعاً غربهن سموم

فقامت بسبت يلجج الجلد وقفه يقيض احشاء الفؤاد اليم

اذا انزفت من عبرت يمتهم تسائلهم عن حبها و تلوم

فلما استفاقت فجت الناس دونه و ناشت بأطراف الرداء تعوم

تنتهي القصة بواقعة و متابعة شخصيته و تحليل الحوادث انها ربما تدور على هدف واحد و هو عنت
الدهر و قسوته فان الحياة لا تحمل الا الحزن و الالم .

لعل الهذليين لم يعرفوا الاستقرار و لما جاء الاسلام زرع عندهم التفاؤل بالحياة و هكذا في قصص
اخرى نجد نفس الوقائع متشابهة فقصيدة ابي ذؤيب الهذلي (خويلد بن خالد) تحكي رثائية رائعة ذلك
التسلسل القصصي الذي تتوفر فيه عناصر القصة الاربعة - الوقائع - الزمن - المكان - الحدث مع
الشخصية .

ان الحدث يقدم على مظهرين اولهما غير مرئي يوحي به الشاعر و يتعلق بشخصيته قريبة اليه فقد يشخص ابو ذؤيب في ثمانية عشر بيتا هذا الحدث و يغطي ملامحه بواسطة السرد (الخلاصة) فالنقد لا يتعامل مع الافتتاحية التراجيدية و المظهر الثاني الفني ما نلمسه في قصة ثور الوحش و الصياد / صراع الحيوان و الصياد و قد يقوم هذا الصراع على لوحة وصفية تقوم على التوازن ثم تغييره ثم انعدامه ثم اعادة التوازن فالتوازن في حالة سعي الصياد لفريسته و الفريسة تبدأ بالخروج و عملية التغيير تحصل بانطباع الليل على الفريسة ثم تظهر حالة انعدام التوازن التي تظهر فيها كلاب الصيد و عملية الاعداء تتعلق بمن يغلب ؟ اما التوازن الجيد فهو الحبكة القصصية و قد يتوقف صلب الحدث القصصي عن وحدتين :

أ- الوحدة الاساسية ترتبط بوصف الصراع .

ب- الوحدة العضوية : احداث لا تغير المجرى العام بل تكون سلسلة مترابطة تصور اوضاع الاشخاص .

و الهذلي يتحدث عن الحيوان كثيرا و يعنى بوصف حركاته و هو يؤثر الدقة و ان بعضهم ارتبطوا بالحيوان ارتباطا شديدا كما نرى وصف البقرة الوحشية عند عمرو بن الداهل :

و هادئة توجس كل غيب لها نفس اذا سامت نشيج

تصيخ الى دوي الارض تهوي بمسمعها كما نطف الشجيج

و ابو ذؤيب الهذلي يصف الحمار الوحشي :

مستقبل الريح تجري فوق منسجه اذا يراح اقشعر الكشح و الصفد

يرمي الغيوب بعينه و مطرفه مغض كما كسف المستأخذ الرمد

و لو عدت الى قصيدة ابو ذؤيب الهذلي :

امن المنون و ربيها تتوجع و الدهر ليس بمعتب من يجزع

قالت اميمة ما لجسمك شاحبا منذ ابتذلت و مثل حالك ينفع

و يستمر في مقدمته حتى يأتي البيت الثالث عشر :

فشرعن في جمرات عذب بارد حصب البطاح تغيب فيه الاكرع
فشرين ثم سمعن حسا دونه شرف الحجاب و ريب قرع يقرع
بل همها من قانص متلبب في كفه جشء اجش و اقطع
فنكرنه فنفرن و افترشت به عوجاء هادية و هاد خرشع
فرمى فانفذ من نحوس حائط سهما فخر و ريشه متصمع
و الدهر لا يبقي على حادثه شبيب افزته الكلاب مروع
شعف الضراء الداجنات فواده فاذا يرى الصبح المصدق يفرع

انه يذكر هجوم الكلاب على الوحش ثم يستمر :

يرمي بعينيه الغيوب و طرفه مغض يصدق طرفه ما يسمع
و يلوذ بالأرض اذا ما شفه قطر و رائحة بليل زعزع
فغدا يشرق متنه فبدا له اولى سوابقها قريبا توزع
ينهنه و يزودهن و يحتمي عيل الثوى بالطرفين مولع
حتى اذا ارتدت و اقصد عصبه منها و قام شريدها يتضرع
فكبا كما يكبو فتيق تارز بالجنب الا انه هو ابرع
و الدهر لا يبقي على حادثه جون السرات له حدائد اربع
حميت عليه الدرع حتى وجهه من حرها يوم الكريهة اسفع
و كلاهما ق عاش عيشة ماجد و خب العلا لو ان شيئا ينفع
فعفت ذيول الريح بعد عليهما و الدهر يحصد ريبة ما يزرع

ان في هذه القصة نبأ قد يقف على عناصره الاساسية و يبدو ان السرد كان ثريا لهذا اصبحت القصيدة بعملها الفني مميزة .

ان الحيوان قد يموت في نهاية القصة و هذا هو المنطلق الذي يشعر به الهذليون و هو عنت الدهر و صورة التشاؤم التي يحملونها دائما و عدم الامان من الدهر و ريبة .

و كما اعتاد الشعراء عليه كما يقول الجاحظ (ان الشعراء من عادتهم اذا كان الشعر مرثية او موعظة ان تكون الكلاب هي التي تقتل بقر الوحش و اذا كان الشعر مديحا ان تكون الكلاب هي المقتولة) .

و هنا في القصة الهذلية قد انتصرت الكلاب و مات بقر الوحش الذي يرمز به الى الناقة المتعبة و هي وحيدة لا يمتلك الشاعر غيرها و هو يندب حظه و قدره بانتقادها .

فلعل الهذليين لم يعرفوا الاستقرار و لما جاء الاسلام زرع عندهم التفاؤل بالحياة و هكذا في قصص اخرى نجد نفس الوقائع المتشابهة فماذا في قصيدة ابي ذؤيب (خويلد بن خالد) تحكي رثائية رائعة تتوفر فيها كل عناصر القصة و الحدث يقوم على مظهرين الاول غير مرئي يوحي به الشاعر و يتعلق بشخصية قريبة اليه فقد يشخص ابو ذؤيب ثمانية عشر بيتا فكرة الموت و يغطي ملامحه بواسطة السرد فالنقد لا يتعامل مع الانتاجية التراجمية (المؤلمة) و المظهر الثاني الفني ما نلمسه في قصة ثور الوحش و الصياد / صراع الحيوان و الصياد و قد يقوم هذا الصراع على لوحة وصفية تقوم على التوازن ثم تغييره ثم انعدامه ثم اعادة التوازن فالتوازن في حالة سعي الصياد و لفريسته فالفريسة تبدأ بالخروج و عملية التغيير تحصل بانطباق الليل على الفريسة ثم تظهر حالة انعدام التوازن التي تظهر فيها كلاب الصيد و عملية الصيد تتعلق بالاعادة لمن يغلب اما التوازن الرائع فهو الحبكة القصصية و قد يتوقف صلب الحدث القصصي على وحدتين :

أ- الوحدة الاساسية ترتبط بوصف الصراع

ب- الوحدة الثانوية احداث لا تغير لمجرى العام بل تكون متسلسلة مترابطة تصور اوضاع الاشخاص و الهذلي يتحدث عن الحيوان كثيرا و يعني بوصف حركاته و هو يؤثر الدقة و ان بعضهم ارتبطوا بالحيوان ارتباطا شديدا كما نرى وصف البقرة الوحشية عند عمرو بن الداخل :

و هاوية توجس كل غيب لها نفس اذا سامت نشيج

تصيح الى دوي الارض تهوي بمسمعا كما نطف الشجيج

و ابو ذؤيب الهذلي يصف الحمار الوحشي

مستقبل الريح تجري فوق منسجه اذا يراح اقشعر الكشح و العضد

يرمي الغيوب بعينه و بطرفه فغض كما كف المستأخذ الرمد

و لو عدنا الى قصيدة ابي ذؤيب الهذلي و المراثية المعروفة :

امن المنون و ريبها تتوجع و الدهر ليس بمعتب من مفزعي

قالت اميمة ما لجسمك شاحبا منذ ابتذلت و مثل مالك ينفع

اودى ببني فاعقبوني حسرة بعد الرقاد و عبرة لا تقلع

و اذا المنية انشبت اظفارها الفيت كل تميمة لا تنفع

و يستألف كلامه حتى يصل الى سرد قصة الثور مع الكلاب و صراعها في البيت 13 :

فوردن و العيوق مجلس رابئى الضرباء فوق النجم لا يتتلع

فتسرعن في حجرات عذب بارد حصب البطاح تغيب فيه الاكرع

فشربن ثمن سمعن حسا دونه شرف الحجاب و ريب فزع شرع

و هماهما من قانص متلبب في كفه جشء اجش و اقطع

فنكرنه فنفرن و افترشت به عوجاء هادية و هاد خرشع

هنا تبدأ لحظة التحدي بين الثور و الكلاب :

فرى فانفد من غوص عائط سهما فخر و ريشه متصم

و الدهر لا يبقي على حادثه شبيب انزعته الكلاب مروع

شف الضراء الداجنات فواده فاذا يرى الصبح المصدق يفزع

يرمي بعينه الغيوب و طرفه مغض يصدق طرفه ما يسمع

و يلوذ بالأرض اذا ما شفه قطر و رائحة بليل زعزع
فغدا يشرق متنه فبدا له اول سوابقها قريبا توزع
نهذه و يذودهن و يحتمي عيل الشوى بالطرتين مولع
حتى اذا ارتدت و اقصد عصبه منها و قام شريدها يتضرع
فكبا كما يكبو فتيق تارز بالجنب الا انه هو ابرع
و الدهر لا يبقي على حادثه فتشعر حلق الحديد مقنع
حميت عليه الدرع حتى وجهه من حرها يوم الكريهة يسفع
و كلاهما قد عاش عيشة ماجد و جنى العلا لو ان شيئا ينفع
فعفت ذيول الريح بعد عليها و الدهر يحصد ريبه ما يزرع

هذه نهاية القصة فهي متميزة لان سردها كان قويا ...

و ان الحيوان قد يموت في نهاية القصة و هذا المنطلق الذي يشعر به الهذليون و هو عنت الدهر و الحزن التي يحملونها و عدم الامان عندهم و كما يقول الجاحظ (الشعراء من عاداتهم اذا كانت مرثية او موعظة تكون الكلاب هي التي تقتل بقر الوحش و اذا كان الشعر مديحا تكون في الغالب هي المقتولة) و في القصة الهذلية تنتصر الكلاب و يموت ثور الوحش و الذي يرمز له بالناقة المتعبة و الوحيدة التي تمثل حظ الشاعر و قدره و حياته فعندما تموت مات عنده كل شيء .

و اي تصوير رائع لثور الوحش عند النابغة و هو يصفه حائرا بعد ليلة ما طرق يبحث عن مكان فينهال عليه التراب و عند طلوع الفجر يسمع صياح الكلاب و هي علامة الموت فتهاجم على فؤاده و هو يهب لقتلها ...

كان رحل و قد زال النهار بنا يوم الجليل الى مستأنس وحد
من وحش وجرة موشي اكارعه طاوي المصير كسيف الصقيل الفرد
اسرت عليه من الجوزاء سارية تزجي الشمال عليه جامد البرد
فارتاع من صوت كلاب فبات له طوع الشوامت من خوف و من صرد

فبثهن عليه و استمر به صمع الكعوب بريئات من الحرد

شك الفريضة بالمدري فانقذها طعن المبيطر اذ يشفى من العضد

كانه خارجا من جنب صفحته سفود شرب فوه عند مفتأد

فظل يعجم عن الروق منقبضاً في حالك اللون صدق غير ذي اود

ان الحوار الذي يكتنف القصيدة في الشعر الجاهلي قد يكون بسيطا قد لا يخرج عن نطاق المساجلة الانية و الفكرة المغلفة و التأثير الذاتي و ربما يكون طويلا تنبعث منه فلسفة الشاعر و تبرز من ملامحه القدرة و قد يحسب البعض ان هذا الحوار حقيقي .. و لدي بعض الاراء التي استخلصتها من الكتب التي اهتمت بهذا الموضوع .

فالدكتور نوري القيسي في كتابه (في الادب الجاهلي) يؤكد بان الحوار الشعري الذي استخدمه الشعراء يعتمد على التجريد فالشاعر يخلق الحوار ليصفه في نفسه فعندما يحاور الفرس يؤكد شجاعته و عندما يحاور الذئب يؤكد كرمه و عندما يحاور المرأة يؤكد بطولته .

قول حاتم الطائي :

و قائلة اهلكت بالجوود مالنا و نفسك حتى ضر نفسك جودها

فقلت دعيني انما تلك عادتي لكل كريم عادة يستعيدها

و مقله تأخذ شخصية أمري القيس هذا التجريد و تقديم الحوار ابعادا قصصية تتجلى من خلالها قدرة و يبرز تمكنه الشعري فقد جرد امرأة فنهض يسعى اليها برفق و مهل لئلا يشعر بمكانه احد بعدما نام اهلها :

سموت اليها بعدما نام اهلها سمو حباب الماء حالا على حال

فقالت سباك الله انك فاضحي الست ترى السمار و الناس احوالي

فقلت يمين الله ابرح قاعدا و لو قطعوا رأسي لديك و اوصالي

حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا فما ان من حديث و لا صال

و في لاميته يخاطب عنيزة :

و يوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الولايات انك مرجلي

تقول و قد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

فقلت لها سيري و ارخي زمامه و لا تبعديني من جناك المعلن

فقد اصبحت هذه التقليدية معروفة سار عليها الشعراء و لكن هل ان صورة الحوار التي استخدمها الشاعر وقفت عند حدود الصفات ؟ و الجواب لا لان الشاعر يذكر نوازع النفس الانسانية .

الدكتور شوقي ضيف (العصر الجاهلي ص233) يطرح رأيا بان القصائد الجاهلية ذات حركة واسعة فهي اساس لها و قد يدخلون هذه الحركة في المقدمة نفسها و لا يكتفي الشاعر بالوقوف على الاطلاع و بكاء الديار بل يصور ظعن حبيبته و هي تخرج طالبة المرعى و هي تنتقل من موضع لآخر و ان عين الشاعر تسجل هذه الرحلة تسجيلا بديعا و قد اتاحت هذه الحركة لشعرهم ضربا من الروح القصصية في وصف الحيوان و مغامراتهم الاخرى فان معانيهم يسودها ضرب من القصة و ظل شعرهم غنائيا ذاتيا يتغنى الشاعر بأهوائه و عواطفه غير محاول ان يضع قصة يجمع لها الاشخاص و الزمان و المكان و الحدث و ان يرتبها ترتيبا دقيقا و ربما هذا لا يخطر بباله لأنه مشغول بنفسه و مشاعره .

القصة الهذلية : تقف على ركنين الاول المذهب العام الذي يلجأ اليه الشاعر عامدا و الثاني تخيل الحادثة بوعي و تفصيل و هم يميلون لعدم الاطالة و يبتعدون عن تعدد الموضوعات و يميلون للمقطعات القصيرة .

و قد تتوفر عناصر القصة بأركانها فالشاعر يترجم حوادث مرتبطة بواقع الحياة و قد تأتي عن طريق خياله الخصب بواقع يعيشه فهذا ساعدة بن جؤية :

و تالله ما ان شهلة ام واحد بأوجد مني ان يهان صغيرها

رأته على يأس و قد شاب رأسها و حين تصدى للهوان عشيرها

فشب له مثل السنان مبرءا امام لنادي دارها و اميرها

و قد تتشابه الافكار و الوقائع و تختلف القافية في قصيدة اخرى فهو يحكي لنا قصة وحيد امه بوقائع متسلسلة و شخصيات هي الابن و الاصحاب و الام و بهذه الافكار الواقعية فيقول :

رأته على فوت الشباب و انها تراجع بعلا مرة و تميم

فشب لها مثل السنان مبرءا اشم طوال الساعدين جسيم

و الزمها من معشر يبغضونها نوافل تأتيها به و غنوم

فاصبح يوما في ثلاثة فتية من الشغب كل خلة و نديم

فقد ذهب مع اثنين من صحابته و هناك فاجأهم الغزاة و هم لا يدرون بالقدر حتى احاط بظهره عدد
منهم فرماهم و لم يستسلم فرجع الصاحبان لامهما يبكيان

و لم ينتبه حتى احاط بظهره حساب و سرب كالجراد يوؤم

فورد الينا لا يشمثم نصله اذا صاب اوساط النظام صميم

فألهاهم باثنين فهما كلاهما به قارب من النجيع ذميم

و جاء خليلاه اليها كلاهما يفيض دموعا غريهن سجوم

فقالوا عهدنا القوم قد حصروا به فلا ريب انى كان ثم لحيم

ماذا فعلت ضربت نفسها بالسبت و عندما تستيقظ تعاتبها بشوق و تنتهي القصة بسرد دقيق و نهايتها
تدور على عنت الدهر و قسوته مع هذه الام فالحياة لا تحمل الا الحزن و الالم و اليأس .